فلسفة السعادة في الحضارة الحديثة

خلاصة كتاب برتراند رسل

بقلم يوسف حنا

لايكاد ينجو عصر من عصور الانسانية من الاعتقاد بأنهُ ينفرد بأكبر قسط من أسباب الشقاء في الحياة ، وبحث اليوم يتناول هذه الاسباب تحليلاً علميًا ، تتبعهُ بآخر في أسباب السعادة ، وكلا البحثين يمثلان خلاصة ما استطعت اقتباسهُ من آراء «برتراند رسل» الفيلسوف الانكليزي في كتابه Conquest of Happiness

القسم الاول — أسباب الشقاء

١ — ﴿الاشتغال بالنفس﴾ : الاشتغال بالنفس وحصر الانسان إياها ضمن دائرة ذاتيته الفردية يفسد جوَّ الحياة ، كالمصباح حين تضعهُ في غرفة ثم تقفل نوافذها ، فانهُ يفسد الهواء . والانسان المشتغل عن الحياة وما فيها ، بنفسه ، يجد في أقل صدمة يصطدم بها في حياته ، طعنة مقصودة يوجهها اليه القدر المعاند ، المشتغل هو الآخر عن العالم كله بمحاربة هذا الفرد الوهم ، وفي هذا الاعتقاد المغلوط كثير من أسباب شقاء المرء

وأول خطوة في سبيل سعادة المرء هي خروجهُ من سجن ذاتيته واهتمامهُ بالحياة الخارجة عنه — صحيح ان الاهتمام بالعالم الخارجي لا يعني خلو سبيل نفس الفرد من العثرات . ولكن صحيح أيضاً ان أثر العثرات التي يحسها المرء خارج نفسه لا تفسد عليه حركة تلك النفس في صميمها كما يفسدها أثر أقل صدمة يصطدم بها المرء حين يكون حبيس نفسه ، مشغولاً بها عن العالم كله وما فيه — واكبر حرب طاحنة مثلاً لا تعرقل حركة حياتك الداخلية كما يعرقلها فكر بسيط يطرأ عليك باتجاه من سلطان أنانيتك واشتغالك بنفسك عن العالم

٢ — ﴿التنافس﴾ : سل الناس اليوم في اوربا وفي امريكا على الاخص ، عما يشغلهم في الحياة ، يجيبوك فوراً « يشغلنا فيها الكفاح للرزق » والحق ان هذا الجواب غير صحيح — ذلك ان حقيقة ما يسعى اليه الناس هناك هو النجاح لا الرزق — وما اكثر الناس الذين يعيشون حياة يفضلها الموت الف مرة ، بسبب التنافس والتطاحن في سبيل النجاح

والنجاح عند أولئك الناس هو شيء مادي لا يكاد يعدو المال ، فالمال عندهم هو كل شيء في الحياة ، وقد بلغت شهوة الاندفاع وراء النجاح المادي مبلغاً خطيراً حقًا حتى ان

المرء يندفع اليوم في ألوان من المضاربات والمغامرات تجعل حياة اصحابها قلقاً مستمراً واضطراباً لا ينقطع له سبب

وليس من ينكر ان الرغبة في النجاح هي عامل خير في حياة الناس ، ولكنني انكر اننا حين نجعل هذه الرغبة عنصر السعادة الوحيد ، نفسد اسباب السعادة . فلتكن شهوة النجاح عنصراً من عناصر السعادة في الحياة ، لا خلاصة كل عناصرها مجتمعة معاً

٣ — ﴿ الملل ﴾ : والملل لا يعني غياب وسائل السعادة ، وانما هو نتيجة مباشرة لغياب الاسباب التي تثير العاطفة . والميل الى اثارة العاطفة في الانسان غريزة بعيدة الغور في نفسه ، واحسب ان هذه الشهوة كانت تجد كفايتها من الاثارة في العصور الاولى التي كان يقتات فيها الانسان بما يتصيد ، فلما انتقل الانسان الى عصر الزراعة ، اخذت تتضرب اليه اسباب الملل ، ونحن مازلنا نشعر بلذة بعيدة الاثر في النفس حين نخرج للصيد — فاليل الى اثارة العاطفة ظاهرة قوية الوضوح بين الطبع

وكثيراً ما نسمع عن ملل الحياة في هذا العصر الميكانيكي ، ولكننا نرى نحن ان العصر الميكانيكي أزال كثيراً من أسباب ملل الحياة الزراعية . فساعات العمل بين الآلات ليست ساعات وحدة وانفراد كساعات المزارعين ، أما ساعات فراغهم فيمكن أن تصرف في كثير من أسباب إثارة العاطفة بفضل الآلة

فأين ساعات الليل المظلمة بالامس الزراعي من ساعات الليل في هذا العصر الميكانيكي

كانت العائلة في الماضي تجتمع ليلاً في غرفة أو في منزل ضئيل النور ليتحدث الأب ويصغي الابناء ، ولم يكن الخروج حتى من شارع الى آخر أمراً ميسوراً في كل وقت بسبب رداءة الطرق وقلة الانوار ، وكانت التقاليد تضغط بشدة على صدور البنين والبنات معاً

أما اليوم فالليل نهار متصل بأخيه النهار الشمسي .... والآلة التي احدثت تلك الثورة الاقتصادية ضربت على قيود الماضي يد من حديد فخرجت المرأة تسعى وترتزق ، ولم تعد العائلة محصورة ضمن جدران المنزل وانما خرجت الى ميدان فسيح الجوانب بفضل الآلة فهناك دور السينما ، والراديو ، والمراسح ، والمراقص وما الى ذلك مهد سبيلها طرق مرصوفة وسيارات وطيارات ... وشوارع وطرق مضاءة وتقاليد جديدة لا تعرف تزمتاً ولا شبه تزمت

والرغبة في الهروب من الملل ، اذا لم تتوافر أسباب اثارة العاطفة قد تكون سبباً في شرور كثيرة ، فالاندفاع وراء المخدرات وأسباب الخلاعة سببٌ لشدان الخلاص من الملل وبواعثه

٤ — ﴿ الحسد ﴾ : الحسد سجية أولية في الانسان ، يبدي الطفل مظاهر قوية منها

قبل أن يتم السنة الاولى من حياته . وليس الحسد شرًّا كله — فالعامل الحيوي في وجود الديمقراطية وازدهارها ، مردُّه الى الحسد والغيرة — وهل ترى ان السواد من الناس كانوا يتطلعون الى المساواة لولا ما يحسونه من أسباب الغيرة من الطبقات الاخرى ؟

وآفة الانسان في سجية الحسد اللئيمة هي اعتياد المرء أن ينظر الى الحياة نظرة مقارنة ومفاضلة ، فالواحد لا يقنع بما عنده ويسعد به ثم يحاول أن يزيده ، وانما هو يقارن بين ما يملك من أسباب السعادة وبين ما يملك غيره منها ، فيحسد الغير ويشقى بحسده — والاجدى على الناس ألاّ يتجهوا في حياتهم الى المفاضلة اذا هم نشدوا الهناء وراحة البال

والحسد خدن التنافس ، فالتاجر الصغير مثلاً لا يحسد صاحب الملايين ولكنهُ يحسد التجار أمثاله ، وهذا عصرٌ واسع رقعة التنافس فهو واسع رقعة الحسد أيضاً

ثم ليذكر ان المواصلات العصرية المختلفة وربط انحاء العالم بعضها ببعض ، يشتي الوسائل الاخرى من مثل الصحف ، والسينما ، والراديو ، وما الى ذلك ، تعرض على الناس مختلف الوان الحياة الانسانية عرضاً أخّاذاً يوقد جذوة الحسد . وهل حياة العصر إلاّ تنافس وحسد بين طبقات من الناس وطبقات أخرى ؟ وبين أمم وأخرى ، وشعوب وشعوب ؟ وأعظم ما يولد مدنية العصر هو هذا التنافس الناشئ عن الحسد

٥ — ﴿ التعب ﴾ : من المفيد للجسم أن يجهد بعض الجهد ، ولكن ليس من الفائدة في شيء أن يرهق الجسم بالعمل — وقد كان العمال قبل العصر الميكانيكي الحاضر يرهقون أشد الارهاق ، فلما جاءت الآلة رفعت عنهم كابوس التعب الا أن هذا التعب الزائل حلَّ مكانه تعب آخر لا يقلُّ عن الاول خطراً — وهذا هو تعب الاعصاب وارهاقها

يترك عامل اليوم منزله الى المصنع فتلتقف أذناه أصوات السيارات والترموايات والوابورات وما شئت من جلبة الآلات ، فاذا وصل المصنع استقبلتهُ عاصفة هوجاء من الصخب والضوضاء ترهق الاعصاب شر ارهاق . وهو في هذا كله في قلق نفسي مستمر ، فهناك خشية الطرد ، ولؤم الرؤساء ، وخوف الاصطدام بآلة من الآلات ، كل هذا وأمثاله يثير في نفس العامل شتى الاضطرابات المتفاعلة مما يرهق النفس والاعصاب معاً

هذه هي حياة العمال . أما أصحاب العمل ففي شر آخر ، هم في قلق مستمر من التنافس والمغامرات والمضاربات ، وما قد تؤدي اليه من خراب ودمار

ولكن دعنا من التخصيص ولنبحث في حياة اليوم من وجوهها العامة

لا ينكر أن حياة اليوم هي جهاد مستمر في سبيل النجاح وهذا الجهاد العملي المضني معاً ، يفضي الى الاعياء ، ولكن الحق أيضاً ان معظم هذا الاعياء ناشئ عن قلق النفس ،

وليس أجدى على المرء من انتهاج فلسفة صحيحة تجعله متزن التفكير في أعماله متزن النفس، صحيح الحكم على الاشياء.

وهناك عامل خفي شديد الاثر في أسباب وجود التعب في العصر الحالي، هو الحاجة الى ما يثير العاطفة ويشحذها حتى تتذوق أسباب السعادة ودعني أمثل لك على ما أقول: —

ان أحوال الاقتصاد الحاضرة لا تساعد على الزواج المبكر، فاذا جاهد الرجل حتى تمكن من الزواج، كان ذلك وهو في سن الثلاثين أو الاربعين من عمره، وزوجه هي الاخرى تكون قد جاهدت جهاده وبلغت من السن ما بلغه هو، فتجيء حياتهما الزوجية فاترة أشد ما تكون حاجة الى اثارة العاطفة وفي هذا ارهاق مضن للاعصاب

٦ — ﴿فكرة الخطيئة﴾ : ليس من شك في أن فكرة الخطيئة لها أكبر الاثر في سعادة الانسان أو عدمها، وتستند هذه الفكرة من الناحية الدينية الى ما يسمونه الضمير، والضمير عند الناس، مصدر وحي يشعر به المرء الخير من الشر، ولكن أترى ان العلوم النفسية الحديثة تقبل هذا القول؟ وهل الضمير الا مجموعة المواد التي يتألف منها العقل الباطن؟

ان أقوى نوازع هذا العقل هو الميل الى التستر، فالانسان ما يزال يحتفظ بسجية الاختباء التي كانت أم وسائل دفاعه عن نفسه في عصور حيوانيته، وما تزال هذه السجية قوية الاثر في نفسه

فالرجل لا يشعر بتأنيب الضمير من فعل شيء الا اذا افتضح أمره، فاذا تستر الامر فالاغلب انه لا يشعر بشيء من التأنيب أو التبكيت

والضمير لا يوحي لا بخير ولا بشر، وانما هو يفصح عما رسب في العقل الباطن من عادات ونوازع، والخوف من الاصطدام بهذه النوازع أو التساوق معها، هو ما نعرفه نحن باسم الخير والشر. وهذه المواد التي تتألف منها عقولنا الباطنة هي مجموعة ما ترسب فيها من وراثات، وما نكتسبه من البيئة التي ننشأ فيها والتي تكون ضمائرنا؛ فنتوهم نحن ان صوت ضمائرنا هو صوت الله

نخلص من هذا كله بنتيجة خطيرة، هي خلو قوانيننا الاخلاقية من سلطان العقل، والناس يتناولون هذه القوانين غير المعقولة كما يتناولون المخدرات وواجب المرء أن يبتعد عنها

أنا لا أقول بأن يعيش الناس بدون قوانين أخلاقية، ولكني أصر على وجوب اصطناع قوانين من وحي العقل لا من وحي الوراثة والبيئة

٧ — ﴿توهم عداء الناس﴾ : من ألوان الجنون أن يتوهم المرء وجود مطاردين له يقتفون خطاه لايقاع الاذى به، وكثيراً ما تنتهي هذه الاوهام الى ضرورة حفظ المصاب بها في أحد المستشفيات — ولكننا لسنا نبحث في هذه الحالات الشاذة، بل هناك كثيرون

من الناس يعيشون فريسة هذه الاوهام ، فتزاحم في كدر مقيم بسببها

أبناء هذه الفئة من الناس يتوهمون انهم يحسنون الى الغير فيسيء اليهم ، يصفونهُ بالنية والارشاد فيتالم منه الجحود والنكران ، ويبذلون في سبيله كل تضحية ، فيسرف هو في الاساءة والشر ، فهؤلاء يجب أن يذكروا ان كثيراً مما يتخيلون انما هو مرض نفسي تسهل معالجته بقليل من العناية ولصحتي أن يذكروا الامور الآتية :

١ — ليست تضحياتهم التي يتوهمونها مثالاً لنكران النفس في سبيل الغير كما يظنون

٢ — ليجتهدوا في تعرف حقيقتهم . وفي تعرف هذه الحقيقة تخفيف لآلامهم فمنهم من يقدر مواهبهُ مثلاً فوق قدرها ، فيتوهمون ان الغير يسيء اليهم حين لا يعطيهم حقهم من التقدير لتلك المواهب الفذة ...

٣ — ليذكروا ان الناس لهم ما يشغلهم في الحياة غير انتقادهم لنكران تضحيات هؤلاء الافراد والاساءة اليهم

٤ — ليذكروا أيضاً ان الناس ليسوا دائماً على استعداد لقبول كل ما يقدم اليهم من التضحيات والارشاد وما الى ذلك

٨ — ﴿الخوف من الرأي العام﴾ : وهذا آخر ما نبحثه في مقال اليوم ، وهو أدق نقاط بحثنا

قليلون من الناس يستطيعون أن يسعدوا في الحياة اذا تنافرت آراؤهم وتقاليد الوسط أو الجماعة التي يعيشون معها ، ومن أقوى مظاهر العصر الحاضر اختلاف الناس اختلافاً بيّناً في معتقداتهم المدنية والسياسية والدينية وغير ذلك ، واذاً فأسباب عدم السعادة اليوم كثيرة كثرة هذه الاختلافات في المعتقدات ، وتضارب آراء الافراد والجماعات بعضها وبعض

وحضارة اليوم تثب وثبات واسعة ، لا انزان فيها ، وهذا من شأنه أن يوسع رقعة تباين المشارب واختلاف الآراء وتضاربها . وليس أثقل على النفس من التضييق على ما يعتقده المرء انهُ حق

ومن أشد الاخطار الناتجة بين الناس القول بأن البقرية اذا صح جوهرها فليس يقف في سبيل ظهورها عائق ما ، وان المرء الصحيح النزعة والآراء لابدَّ أن تتغلب نزعتهُ على الرأي العام وتضييقه . هذا خطأ عظيم وكم من عبقري نابغ دفن حيًّا هو وعبقريته دون أن يعرف الناس شيئاً عنه ؟ دفنه في الحياة جهل الناس وغباؤهم . ثم من ذا الذي قال ان العبقري وحده هو المكلف بتحدي الجماهير ؟ أليس الاقرب الى العقل أن تفسح الجماهير المكان لكل فرد من الناس حتى يظهر ما عنده خيراً كان أو شراً ؟ [البقية في باب الاخبار العلمية]

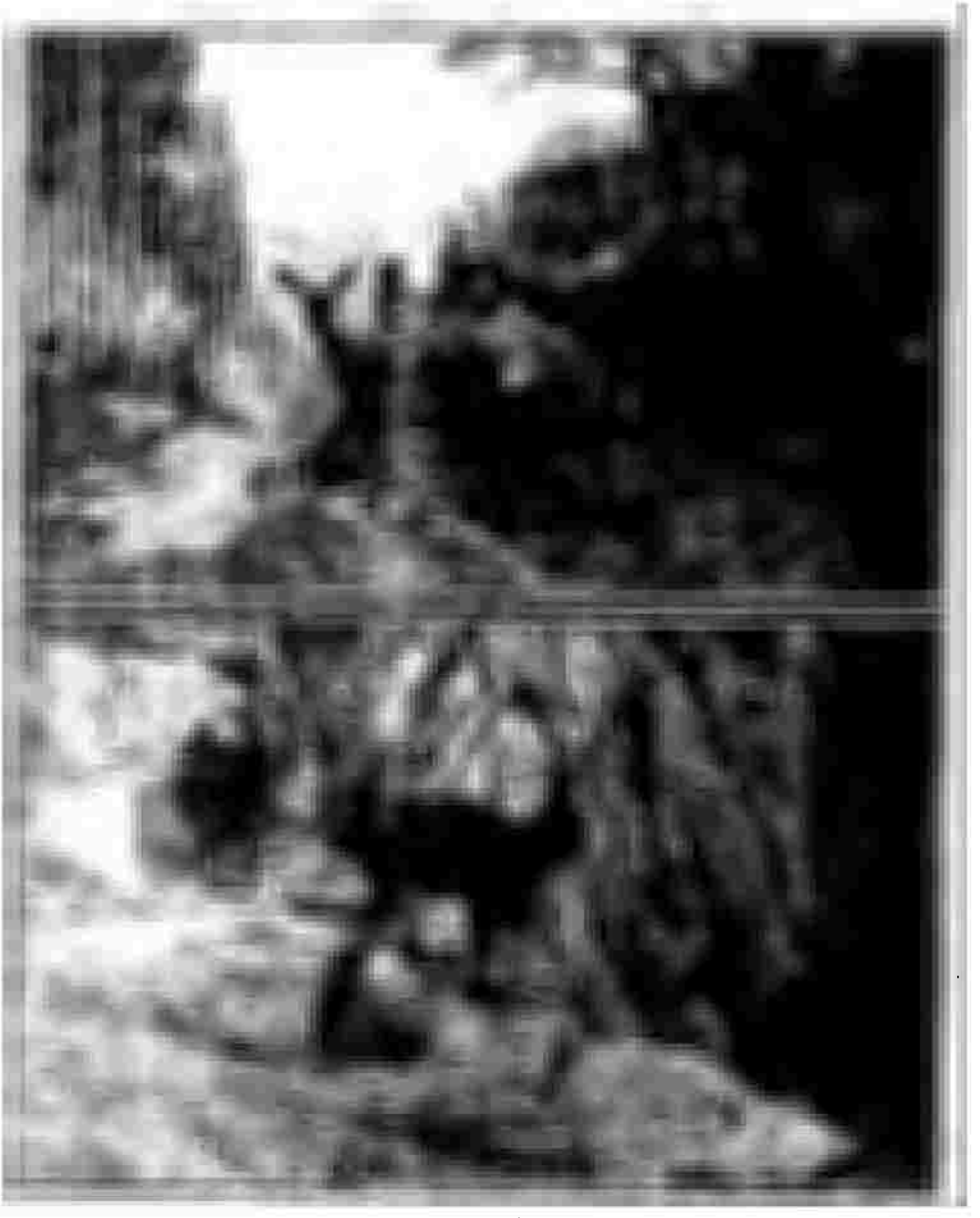

مشهدان في متحف فيلد بشيكاغو يمثلان الحيوانات في سارحها